سـامى خشـبة

« شرور » الاستشراق
كيف ننتفع بها ؟ !

● بمناسبة مرور قرنين على تأسيس الجمعية الآسيوية البنغالية .

تحتفل دوائر الاستشراق الأكاديمية فى الغرب — خلال الشهور الأخيرة بمرور قرنين على تأسيس أول « جمعية آسيوية » كان هدفها : « تطوير وتنظيم دراسة الثقافات القديمة فى آسيا ، وميراثها من الأديان والشرائع والآداب والفنون » حسبما جاء فى إعلان قيام « الجمعية الآسيوية البنغالية The Bengal Asiatic Society » الذى كتبه وألقاه ، مؤسس الجمعية فى كلكتا ، عاصمة البنغال البريطانى فى ذلك الوقت (عام ١٧٨٤) سير « ويليام جونز » Sir William Jones . وتعتبر تلك الجمعية أقدم الجمعيات الاستشراقية المنظمة لهذا الغرض ، وسبقت زميلتها الهولندية التالية لها بنحو عشر سنوات .

ولقد بدأت الاحتفالات بالفعل منذ شهر نوفمبر عام ١٩٨٥ ، فى نيودلهى ، باجتماع « اللجنة العليا للجمعية الآسيوية البريطانية الملكية » ، التى اندمجت فيها جمعية البنغال منذ عام ١٨٣٥ ، وبمشاركة مجلس أساتذة « معهد الاستشراق البريطانى British oriental Institute » ، ومجالس الإدارة ، ولساتذة الجمعيات ، وأقسام الجامعات الهندية التى تتخصص فى نفس الدراسات التى بذرها « جونز » قبل قرنين ، وعلى رأسها دراسة « الشرائع الهندية » القديمة ، ومعها ديانات ولغات الهند والآثار المكتوبة ، الدينية والأدبية والفكرية ، التى ارتبطت بتلك اللغات والديانات .

وقد يكون المهم منذ البداية ، هو أن ألفت النظر إلى « الأسلوب العلمى » للغاية الذى يتبعه الأكاديميون والعلماء الهنود فى التعامل مع مؤسسة « الاستشراق» الغربية التى تخصصت فى دراسة ثقافات الهند وتراثها الدينى والفلسفى والأدبى . إنهم لم يتوقفوا أبدا عند ما يمكن وصفه بـ « الاستشراق وخبائثه » بدءا من تشويه صورة تراث هذه الحضارة المشرقية العظيمة ، وحتى توظيف المعلومات والمفاهيم التى توصل إليها المستشرقون الغربيون أنفسهم ، ووضعها فى خدمة الإدارات

الاستعمارية التى بدأت تسيطر على الهند ، منذ أواخر القرن السادس عشر ، ورغم أنهم — فيما هو واضح كل الوضوح — قد تبينوا تلك الشرور وأدركوا تفاصيلها ومغزاها ، فإنهم لم يشغلوا انفسهم طويلا بالرد على التشويهات التى اصطنعها الاستشراق وفرضها على ثقافات الشرق القديمة ، أو بمحاولة إقناع الشعوب الأوربية بخبث نوايا المستشرقين الأوروبيين ، أو بسوء طوية مؤسسة الاستشراق الأوروبية وتعاونها مع الإدارات الاستعمارية (فهذا عمل — من وجهة نظر الأكاديميين والعلماء الهنود — لاطائل من ورائه : فهم من ناحية لن يستطيعوا التأثير على وعى القارىء الأوروبى المثقف ، ولن يستطيعوا أن يدخلوا فى منافسة مع أجهزة ومؤسسات التعليم الأوربية وغيرها من أجهزة صنع الوعى الغربى — للتأثير على الجمهور الأوربى نفسه ؛ وهم من ناحية أخرى ، لن يستطيعوا مواصلة الانتفاع من المنجزات العلمية الحقيقية للأستشراق الغربى إذا هم انشغلوا بمحاولة تصحيح التصورات النهائية التى صاغها هذا الاستشراق عن الثقافات الهندية نفسها .

ولا شك فى أن الفقرة الاعتراضية الأخيرة تتضمن عبارة سينظر إليها الكثيرون باعتبارها نموذجا للوقوع فى فخ الخبث الاستشراقى نفسه ، أقصد عبارة : الانتفاع من المنجزات العلمية الحقيقية للأستشراق الغربى .

ولكن كاتب هذه السطور ، يحب أن يوضح ببساطة ، أن هذه العبارة ، لم تكن وقوعا فى الفخ ولم تصدر عن غفلة ، وإنما هى مقصودة لمعناها الحرفى الواضح .

وليسمح لى القارىء العـزيز بعـرض بعض « المعلومات » المحايدة ، قبل استخلاص أية معانٍ ، وقبل إصدار أية أحكام .

فالحقيقة ، هى أن « سير ويليام جونز » نفسه ، الذى درس القانون ، وبعض اللغات الشرقية فى لندن — منها العربية والعبرية والفارسية والتركية والهندية والأوربية — قبل أن يعين قاضيا وعضوا فى المحكمة العليا للبنغال البريطانى — الحقيقة أن هذا الرجل ، كان أول « مثقف » غربى ، يتمكن من دراسة اللغة السنسكريتية (الهندية القديمة ، شبه المقدسة ، والتى كتبت بها كل النصوص الدينية للديانات الهندوسية والبراهمانية ، وكل الآثار الأدبية والفلسفية المرتبطة بهاتين الديانتين) .

والحقيقة ، أن هذا الرجل ، بفضل معرفته اللغوية الواسعة ، التى ضمت — غير اللغات الشرقية المذكورة — اللغات : اللاتينية واليونانية القديمة ، والسلتية والقوطية الجنوبية (من لغات القبائل الأوربية القديمة ذات الأصل الآسيوى) ، إضافة إلى بعض اللغات الأوربيـة الحديثة ... الحقيقة ، أن هذا الرجل بفضل المعرفة اللغوية الواسعة ، وبفضل تعرفه على أسس علم اللغويات القديم ، كان هو المؤسس الأول لعلم اللغويات الحديث فى مرحلته الأولى ، فى القرن التاسع عشر ، وكان واضع الأساس الأول لنظرية « العائلات اللغوية » التى راجت فى القرن التاسع عشر ، وواضع لسس نظرية عائلة اللغات التى عرفت باسم « العائلة الهندو أوروبية » .

ففى عام ١٧٨٦ ، أى بعد عامين من تأسيسه للجمعية الآسيوية البنغالية ، ألقى « سير ويليام جونز » ، محاضرة فى المجمع العلمى للجمعية ، وردت فيها فقرة كانت لها نتائج علمية بالغة الخطورة فى الأعوام التالية . تقول هذه الفقرة — التى أنقلها عن كتاب صدر منذ شهور عن « ويليام جونز » ونشرته دار كانبرياج

البريطانية من تأليف أحد . حلفائه « جارلاند كانون » عضو الجمعية الآسيوية البريطانية ، الملكية الآن) — ماترجمته :

... « إن اللغة السنسكريتية ، مهما كان من قدمها ، ذات بناء رائع ، أكثر اكتمالا من اللغة اليونانية (القديمة) وأكثر ثراء وتنوعا من اللغة اللاتينية ، ولكنه أكثر صفاء ودقة منهما معا ؛ ولكنها مع ذلك تتصل بهما اتصالا قويا فى كل من جذور الأفعال ، وفى قوالب الأجرومية ، وهو اتصال أقوى من أن يكون قد أنتجته المصادفة . إنه اتصال من القوة ، بحيث أنه لا يسع أى عالم فى فقه اللغات إذا مادرس اللغات الثلاث إلا أن يعتقد أنها قد نبعت جميعا من أصل واحد قد لا يكون موجودا بعد ؛ بل إن هناك سببا مشابها ، يدفع إلى افتراض — وإن لم يكن بنفسه قوة الافتراض السابق — أن اللغتين السلتية والقوطية ، تنبعان من نفس الأصل الذى نبعث منه اللغة السنسكريتية (واليونانية واللاتينية) رغم امتزاجهما بصياغات مختلفة للغاية . وقد يكون ممكنا أن نضيف اللغة الفارسية القديمة — إلى تلك العائلة نفسها » .

ويقول « جارلاند كانون » إن أحكام القيمة التى يبدأ بها « جونز » ، قد « تكون مقبولة الآن » ، فاللغات لا توصف بأنها « رائعة » ولا بأنها « صافية ودقيقة » ، ولا توجد لغة « أحسن » من أخرى . ولكن « جونز » — يقول « كونان » — فى سياق فقرة واحدة ، يؤسس الوجود الأول للغة قديمة (الهندو / أوروبية) ويشير إلى أن بعض اللغات الأوروبية والشرقية يربطها — تحت جلدها الظاهر — رباط الأخوة ، ثم يصله مصطلح « العائلة اللغوية » بشكل عفوى تماما ، وهو المصطلح الذى تأسست عليه نظرية لغوية قوية سادت القرن التاسع عشر زمنا طويلا من القرن العشرين .

صحيح أن اللغويين الذين ساروا فى الطريق الذى فتحه « وليام جونز » تناسوا من بعده جانبى الاتصال الرئيسيين — بين السنسكريتية وكل من اللاتينية واليونانية — وهذان الجانبان هما : جذور الأفعال وقواعد الأجرومية (أو ؛ النحو أساساً والصرف) ، وصحيح أن هؤلاء وعلى رأسهم « فرانتز بوب » و « جاكوب جريم » الألمانيان و « رازموس راسك » الدانمركى — قد أسرفوا فى الكشف عن جانب اتصال واحد ، وركزوا عليه ، وهو جانب التشابه فى بعض تصريفات لمجموعة بعينها من المفردات ، ولبعض أفعال الربط وأسماء الإشارة وغيرها (أو أهملوا طويلا ، جذور الأفعال وقواعد الأجرومية) الأمر الذى قادهم إلى أخطاء شهيرة لم تصحح إلا فى أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين بناء على عمل اللغوى الألمانى العظيم « فون همبولت » مؤسس فرع آخر من لغويات القرن الماضى ، ومن تبعه أو تأثر بأفكاره من « سوسير » إلى « تشومسكى » فى هذا القرن ؛ كل هذا صحيح ، ولكن الأساس الذى وضعه « وليام جونز » لم يضع هباء ، على الأقل بالنسبة لتطبيقات العلوم اللغوية (وعلم المعاجم) فى كلٍّ من أوربا — والدول التى تستخدم لغات أوروبية فى أمريكا الشمالية والجنوبية وجنوب افريقيا وأستراليا — والهند أساساً .

ولكن العلماء الهنود قرروا أن ينتفعوا بما أسسه « جونز » من معرفة .

فالحاصل أن « وليام جونز » ترك كتابا هاما ، ومخطوطا لكتاب أكثر أهمية : أما الكتاب فقد ضم ترجمة إلى الإنجليزية لـ « تعاليم مانو » Institutes of manu ودراسة مستفيضة حولها ، من النواحى اللغوية ، واللاتينية والفقهية والاجتماعية . ولهذه التعاليم أهمية خاصة فى الكشف عن الأصول الأولى للديانة الهندوسية وتطبيقاتها القانونية وتأثيرها ومنشئها الاجتماعيين ؛ وربطها — أو فى الحقيقة تأثيرها فى فكرة « الطوفان » التى تبدأ عندها المرحلة الثانية من التاريخ البشرى حسب التصور الدينى) . أما المخطوط ، فكان ترجمة أيضا ، ودراسة ضخمة حول : الشرائع الهندية Hindu Laws. وقد ترك بالطبع أعمالا أخرى كثيرة ، على رأسها كتاب ضخم حول « أجرومية اللغة الفارسية » وترجمة ودراسة مطولة حول سبع من « المعلقات » العربية (وكانت هذه هى أول ترجمة إلى الإنجليزية لتلك المعلقات الشهيرة) . وغيرها .

ولكن العلماء الهنود ، اهتموا أساساً بما يعنيهم : تعاليم مانو ، والشرائع الهندية ، إضافة إلى بعض الاهتمام بكتابة الأجرومية الفارسية ، لاكتشاف « جونز » فيه أسس العلاقة الفوقية ، أو السابقة ، بين تلك اللغة « الأم » التى ولدت السنسكريتية اليونانية القديمة واللاتينية ، واللغة التى أصبحت تدعى : « الآرية — الإيرانية (أو الفارسية) Asian – Persian » والتى يعتقد أنها كانت تستخدم فى المنطقة التى تضم الآن شمال إيران وغرب باكستان وجنوب غرب تركيا وشمال العراق ، وأنها كانت « الأب » المباشر للغة « الأناتولية » التى استخدمها الحيثيون (الآريون بدورهم) فى أواخر الألف الثانى — حتى أوائل الألف الأول قبل الميلاد .

اهتم العلماء الهنود بهذه الأعمال الثلاثة ، ولم ينشغلوا أبدا بمحاولة « دحض » بعض الأخطار أو الأوهام — المفرضة أو البريئة — التى وقع فيها « جونز » ولم يهتموا بإثبات خبثه أو براءته ، وإنما اهتموا بأن يستفيدوا بـ « المعرفة » التى أسسها ، وهى معرفة ذات شطرين :

الأول : والأكثر أهمية ، والأبعد مدى ، هو الذى يتمثل فى الكشف عن « معجم » اللغة السنسكريتية ، وإخراجه من ظلمات مخازن المعابد القديمة (وكان تعلم هذه اللغة قد أصبح محرما على غير الكهنة من مرتبة معينة منذ القرن الثالث ، ربما مع بدء الفتوح الإسلامية والخوف المحلى من تعرف « الغزاة » على علوم وأسرار بعينها) حيث كانت هذه اللغة الغنية ، تتلاشى بالتدريج وتضعف معرفة حتى أصحابها الباقين بها لتضاؤل استخدامها وتضاؤل « وظائفها » الاجتماعية . ولقد أدى « اشتغال » العلماء الهنود بتطوير المعرفة بهذا المعجم (من المفردات والتراكيب وقواعد النحو والصرف) إلى الكشف عن كنوز معرفية هامة ، تتعلق بكل من أديان الشرق القديم ومعتقداته (القارة الهندية وفارس أساساً ، ثم اليونان القديمة بعد ذلك) وأصول بعض تصورات ديانات أخرى هامة ، وتتعلق بأصول مؤلفات بالغة الأهمية فى تطور كل من العلوم الرياضية والفلكية والعلوم الاجتماعية وتاريخها خصوصا عند مسلمى

شمال القارة الهندية (منذ البيرونى والخوارزمى وغيرهما) وتتعلق بالكشف عن الأسباب التى فرضت تطور العلم — خصوصا فى ظل الحضارة الإسلامية — فى طريقه « النظرى » ، وعزلته النسبية عن التطبيق التكنولوجى (وأرجو أن يكون لهذا الموضوع الشائق والمهم حديث آخر) .

اما الشق الثانى الذى أفاده العلماء الهنود من انتفاعهم بـ « المعرفة » التى تركها « وليليام جونز » وأتباعه من بعده (من الغربيين ومن الهنود على حدّ سواء) فهو الجانب الجزئى المتعلق بمواصلة الكشف عن أصول ومكونات الديانات الهندية (سواء ما استقر منها فى الهند ، كالهندوسية والبراهمانية ، أو طرد من الهند ليستقر فى مجتمعات أخرى ، كالبوذية وتفرعاتها الكثيرة) وتأثيرها — فى ديانات الشعوب المجاورة ، أو تأثرها بها .

وربما يكون من الأمور ذات الأصالة ، أن الهند كانت من أوائل الدول « حديثة الاستقلال » التى أسست « جمعية » علمية خاصة بها لدراسة « التراث الآسيوى والأفريقى والأوروبى » فكانت بذلك الدولة الوحيدة فى الشرق (حتى ظهرت إسرائيل) التى عنيت بدراسة التاريخ الثقافى — الحضارى العام ، من خلال التراث الفعلى لهذا التاريخ ، ليس فقط بتحقيق ونشر أعمال هذا التراث ، وإنما بـ « دراستها » ومقارنتها ، وفحصها فى ضوء مناهج البحث والمعلومات الحديثة : فالدراسة العلمية لا تهدف إلى « تمجيد » الذات ولا تمجيد الماضى ، وإنما تهدف إلى أن تعى الذات نفسها وعيا موضوعيا ، حتى تتمكن من التعامل مع « الحاضر » تعاملا ذكيا وفعالا ، وحتى تطهر نفسها من أية « خرافات » عن نفسها ، أو عن العالم ، وحتى تساعد العالم (الآخرين) على أن يعرفوها بموضوعية أيضا .

وربما كان هذا هو الأسلوب الأنفع والأجدى فى مقاومة « شرور » الاستشراق . فالعلماء الهنود ، لم يتوقفوا بالطبع ، عند عبارات « جونز » التأسيسية العامة ؛ ثم لم يتوقفوا عند كشوف أتباعه أو من استخدموا تعميماته ، وركزوا على جوانبها الشكلية — ناهيك عمن حاولوا أن يمدوا « نظريته » فى شكلها البدائى إلى لغات أخرى ، سائرين فى درب المقارنة الشكلية بين « تحويرات » عدة مئات من الألفاظ (كما فعل الدكتور طويس عوض » فى : مقدمة فى فقه اللغة العربية) ، وإنما مضوا يوسعون الجانب العلمى الموضوعى الأساسى فى عمل « جونز » ، وكانوا مسؤولين إلى حد بعيد عن فكرة « همبولت » حول الشكل أو البناء « الخارجى » outstructure (أى بناء الكلمة ونطقها) وحول الشكل أو البناء الداخلى Inner Structre ، وحول دينامية اللغة وعدم ستاتيكيتها ، واعتبارها نشاطا شاملا فى حد ذاتها وليست مجرد نتاج سلبى لنشاط آخر . كانوا إلى حد بعيد مسؤولين عن أفكار « همبولت » تلك ، لأنهم قرروا أن يكونوا مسئولين عن الكشف عن « حقائق » ثقافتهم ، لكى يقدموا مساهمة علمية فعلية ، أو حقيقية ، فى هذا العلم الذى تأسس بمناسبة دراسة مستشرق أجنبى للغتهم ولتراثهم . لم ينشغلوا بنواياه ، وإنما انشغلوا بما قدمه من « معرفه » وبما يستطيعون من مساهمة فى تطوير — وتصحيح . هذه المعرفة ، فأصبح لهم وجود « مهم » خاص بهم ، ولكن تأثيره يتجاوز حدودهم بكثير .

وقد يكون هذا هو ما يتعين علينا — أو بالأحرى — على علمائنا ، أن يفعلوه .